

الصراع حول البحر الأحمر منذ أقدم العصور حتى القرن التاسع عشر

أ.د يوسف فضل حسن

جامعة الخرطوم

منذ فتح قناة السويس في سنة زادت أهمية البحر الأحمر كمعبر دولي يتوسط بلاد الشرق الاوسط ذات المضمون الاستراتيجي العظيم في حلبة التنافس بين الدول العظمى، وخلال العقد الاخير كثير الحديث عن أمن البحر الأحمر ورددت كثير من الدوائر العربية شعار أن (البحر الأحمر عربي) وفي نفس الوقت تفاقمت حدة التنافس بين الدول العظمى على كسب ود البلاد المطلة عليه والسعى للسيطرة عليها واخذ هذا التنافس أو الصراع مظاهر مختلفة، منها الثقافي والايديولوجي والاقتصادي والعسكري وحقيقة الأمر أن أهمية البحر الأحمر والصراع المحتدم عليه ليست جديدة بل ترجع إلى عشرات القرون.

بدأت أهمية البحر الأحمر حين استغله قدماء المصريين لبلوغ بلاد البوننت أو الصومال لجلب العطور والبخور والابخشاب منذ عشرين قرنا قبل ميلاد المسيح، ثم اخترقه الفراعنة جنوبا حتى بلغوا بلاد الهند بقصد التجارة في العطور والتوابل وغيرها من منتوجات الشرق في الألف سنة الأولى قبل الميلاد وأصبحت الاستفادة من البحر الأحمر في نقل شتى أنواع التجارة من اليمن، والهند وشرقي أفريقيا، والتي تشق طريقها حتى حوض البحر الأبيض المتوسط ثم أوروبا الغربية، السمة الغالبة على مناشطه.

ومع ان مصر قد نجحت في بسط نفوذها السياسي والتجاري على اجزاء كبيرة من سواحل البحر الأحمر لفتترات طويلة، إلا أن هذا المعبر المهم كان مسرحا لصراعات حادة بين الممالك المطلة عليه من جهة، وبين القوى الاوربية الوافدة كالبطالمة والرومان الذين سعوا لبسط نفوذهم عليه والتحكم في التجارة التي تنقل عبره منذ عهود مبكرة ومنذ قيام الخلافة الإسلامية ظل المسلمون يسيطرون على هذا الطريق البحري المهم سيطرة تامة امتدت حتى المحبط الهندي، ويحتكرون ما يحمل عليه من تجارة الشرق التي تأخذ طريقها إلى اوريا محققين من ذلك ارباحا كبيرة، ومنذ انتهاء الحروب الصليبية اخذت اوريا تسعى لكسر هذا الاحتكار الإسلامي، واضعاف الدول الإسلامية، وقد تهيأ لها ذلك على يد البرتغاليين الذين دخلوا في صراع طويل

مع الممالك حكام مصر، ثم مع الدول العثمانية التي آلت إليها السيادة على الممتلكات المملوكية.

عرف هذا البحر بأسماء متعددة كالبحر الفرعوني، والبحر الحبشي، وبحر القلزم وأخيرا البحر الأحمر والاسمان الأولان يشيران إلى أسماء أمم غلبت اجراء منه أوكله، ويشير الاسم الثالث إلى ميناء بينما تصف كلمة الأحمر لونه مائه.

اشتهر البحر الأحمر منذ زمن بعيد بصعوبة الملاحة لكثرة الصخور والشعب المرجانية التي تعترض مجراه وما يهب عليه من رياح واعاصير، وراجت بعض الاساطير عن وجود صخور من المغناطيس تتسبب في تحطيم السفن المثبتة بمسامير من الحديد وقد عرفت هذه الاسطورة في العالم القديم، ولعل أول من أشار إليها هو الكاتب الهندي مهوجا وابان بروكويوس خطل هذه الاسطورة ذاكرة ان سفن البطالمة والرومان المثبتة بالحديد كانت تمخر عباب البحر الأحمر دون ان يصيبها اي مكروه، وظلت هذه الاسطورة تثير الرعب في نفوس الملاحين حتى عهد متأخرة، ولذا كانت السفن تتجنب الابحار فيه ليلا وعزا القزويني ذلك إلى (خوف الملاحين من جبال المغناطيس). وحتى يتجنبوا هذا الخطر فانهم يخيطون السفن عند صنعها بنوع خاص من الحبال المتينة ويصفها الادريسي بقوله: «ومراكب هذا البحر كلها مؤلفة بالدرس ومحروزة بحبال الليف مجلفطة بدقيق اللبان ودهن كلاب البحر». ويصف البحر بقوله: «المسافرين في هذا البحر يأوون منه في كل ليلة إلى مواضع يسكنون بها ويلجأون إليها خوفا من معاطبه، وينزلون بها ليلا ويقلعون عنها نهارا، وهو بحر مظلم، كربه الروائح، وحش الجزائر لا خير في ظاهره ولا في باطنه وليس كبحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ النفيس وفي جباله الجواهر وفي مدنه اصناف الطيب وفي سواحله محلات الملوك ومدنها.

يؤكد وصف الادريسي هذا حقيقة مهمة وهي ان الطبيعة القاحلة لمعظم سواحل البحر الأحمر لم تساعد على انتاج صادرات ذات قيمة تجارية عدا بلاد اليمن كما ان عائد ثروتها الطبيعية كان قليلا في ذلك الوقت، فاذا ما بعدنا من الساحل نجد ان منطقة الظهر، وبخاصة في الساحل الافريقي، كانت تمتد الموانئ القليلة، التي انشئت في ساحل البحر الأحمر بشتى المنتوجات الزراعية والمعدنية والتي غالبا ما تستغل في التجارة المحلية إلا أن ثراء المرافئ الرئيسية مثل عدن وجدة وعيذاب والقلزم يرجع اعتمادها على التجارة الهندية ولعل هذا العامل الجغرافي يفسر قلة الممالك التي يرتبط تاريخها بالبحر الأحمر باستثناء مصر واليمن اللتين لعبتا دوراً مهماً في تجارة التوابل

والعطور وفي هذا السياق يمكن ذكر الحبشة التي ارتبط تاريخها إلى حد ما بالبحر الأحمر.

كان موقع مصر الجغرافي الممتاز على سواحل البحرين الأحمر والأبيض المتوسط، وما نشأ على أرضها من حكومات قوية سبباً في اهتمامها بالبحر وارتباط تاريخها التجاري والحربي بتاريخه فترات طويلة ففي عهد الملك رمسيس الثاني استولى الاسطول المصري على اجزاء كبيرة من سواحل البحر الأحمر واشتبك مع السفن الهندية التي كانت تتحرش بالسواحل المصرية وفي عهد الملكة حتشبسوت بلغت الاساطيل التجارية بلاد البونت ومنذ ذلك التاريخ صارت السفن المصرية تمخر عباب البحر الأحمر تحمل شتى انواع المنتوجات الافريقية كالعطور والعاج والابنوس ولتسهيل مهمة السفن التجارية شقت قناة في وأدى الطلمات لتربط بين النيل والبحر الأحمر وقد اعيد حفرها مرات وكانت السفن الحربية تحرس الاساطيل التجارية في رحلاتها.

وبعد الغزو الاغريقي لمصر سارت دولة البطالمة على نهج سياسة الفراعنة في البحر الأحمر، فاهتمت برعاية الاساطيل التجارية التي كانت تمثل مورداً اقتصادياً مهماً، وكانت السفن المصرية تبحر حتى عدن وربما جاوزتها إلى الهند ولم تقف جهود البطالمة على المناشط التجارية وتوسيع ممتلكات الدولة، بل اهتموا بجمع معلومات دقيقة عن سواحل البحر الأحمر واجزاء من المحيط الهندي وكان ما جمعه من حقائق عن السواحل وسكانها وموارد ثروتها يمثل ثروة علمية عظيمة ساعدتهم على السيطرة على البحر الأحمر وافادتهم.

تم انشاء موانئ جديدة مثل برنيس، وليوكوس ليمون وأدوليس في الساحل الغربي للبحر الأحمر، جنوب مصوع وارسينوي عند بوغاز باب المنذب وقد ساعدت كل هذه المدن في تنشيط التجارة وربما كان اهتمام البطالمة بالكشف الجغرافي امتداداً طبيعياً لعمليات الاستكشاف التي ابتدتها الفراعنة ومن اشهر هذه الرحلات البعثة التي ارسلها ناخو احد ملوك الأسرة السادسة والعشرين لاكتشاف السواحل الافريقية فأبحرت البعثة من مدينة القلزم وعادت عن طريق جبل طارق عام ق م.

لم تتحقق هذه الزعامة البحرية دون صراع شديد مع دولة سبأ اليمنية ق م ق م التي كانت تسيطر على اليمن وتتحكم في مدخل البحر الأحمر الجنوبي، كما ان غزارة الامطار وخصوبة الأرض جعلتها مصدراً مهماً للعطور والبخور كما كانت على صلات تجارية مع شرق أفريقيا والهند واتاح

هذا الموقع المانع لليمنيين السيطرة على جنوب البحر الأحمر والساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية والساحل الأفريقي المواجه لبلادهم ولذلك تسنى لهم احتكار تجارة التوابل والعطور وغيرها من السلع القديمة التي يجنون منها ارباحاً كثيرة وتجنباً لمخاطر البحر الأحمر كان التجار اليمنيون ينقلون هذه السلع على قوافل برية تسير محاذية لساحل البحر الشرق عن طريق مكة إلى الشام ومصر وكانوا على صلوات حميمة مع دولتي القوافل إلمانية تتمتع بحماية حكام تلك الدول صاروا شركاء لهم في الثراء الذي تحققه تلك التجارة فلما آل الأمر إلى البطالمة سعوا لفك الاحتكار اليمني للتجارة الشرقية ونجحوا في كسر شوكتهم على البحر ومما ساعدهم على ذلك اضمحلال مملكة سبأ وانهارها في سنة ق م، إلا ان اليمن ظلت تحت زعامة الدولة الحميرية ق م تمثل محورا مهما في التجارة الشرقية وقد تبددت هذه السيطرة بدخول الرومان حلبة السباق.

وفي سنة ق م استولت الدولة الرومانية على دولة البطالمة وتبنت سياستها الرامية للسيطرة على بحارة البحر الأحمر وكان هدف الامبراطور اغسطس ان تنال روما نصيبها من الثراء الذي تحققه التجارة الشرقية فقرر كسر الاحتكار اليمني لتلك التجارة وتحويل مسارها للموانئ المصرية واهتم بفرض السلام الروماني على البحر الأحمر وتطهيره من القراصنة الذين زاد خطرهم بتدهور دولة البطالمة كما قرر احكام قبضته على الدول الواقعة على البحر الأحمر، وبخاصة ممالك حمير والانباط والحبشة وتقليم اظافرها الواحدة تلو الأخرى واتبع الرومان طرقا مختلفة لتحقيق هذا الهدف، وكان ارسال حملات عسكرية واحدا منها.

بدأ اغسطس بدولة حمير اليمنية، فأرسل جيشا كبيرا بقيادة جالوس وإلى مصر لغزو بلاد اليمن ولارهاب باقي العرب والانباط واقلعت الحملة من مصر سنة ق م متجهة نحو الساحل الشرقي فتابعته نحو سبوعين إلا ان صعوبة الملاحة كبدها كثيرا من الخسائر في السفن والارواح، ثم تابعت الحملة مسيرتها عبر الطرق الصحراوية حتى بلغت نجران ثم سارت إلى ماريابا مأرب وضربت حولها حصارا، ولكن الجيش الروماني لم يصمد طويلا، بسبب الخسائر في الجند والعتاد وقلة المؤن وما تعرض له من مقاومة شديدة، وعادت الحملة إلى مصر دون ان تحقق نصرا عسكريا، إلا أن ارسال ذلك الجيش الاوربي كان بمثابة مظاهرة استعراضية لقوة روما العسكرية في جزء لم تبلغه اوربا من قبل، وحققت الحملة فوائد عملية وسياسية واقتصادية فقد عرف الرومان ذلك الاقليم وكتبوا عنه، كما أنهم عقدوا بعض الاتفاقيات مع أمراء تلك المناطق،

ومهدت الحملة لزيادة النفوذ الروماني وكسر الاحتكار العربي للتجارة الشرقية.

ومما ساعد ايضا في تحويل التجارة الشرقية للموانئ المصرية، التي قام الرومان بتحسينها وربطها بطرق آمنة، الاستفادة من الرياح الموسمية.

عند استتباب الأمر للرومان في منطقة البحر الأحمر، ومن استقراء الواقع في ذلك الحين نصل إلى أن سياسة الرومان نحو بلاد الحبشة وميناء عدول المنفذ الرئيسي لدولة أكسوم الناشئة كان يسودها شيء من التفاهم والتعاون الاقتصادي إلا ان الرومان اتبعوا مع بلاد النوبة سياسة مغايرة لتلك التي انتهجت تجاه بلاد الحبشة اذ ان الرومان قاموا باجراءات تأديبية ضد بلاد النوبة لتأمين سير التجارة وبخاثة على المناطق الساحلية.

ونتيجة لكل هذه الانجازات اصبح الرومان يسيطرون على البحر الأحمر ويتمتعون بدخل اقتصادي كبير، إلا أن السيادة الرومانية لم تدم طويلا فخلال القرنين الثالث والرابع بدأ الضعف يدب في كيان الامبراطورية من الداخل وانتهى بانقسامها إلى شطرين بينظنة في الشرق، وروما في الغرب وقد ورثت بينظنة نفوذ الامبراطورية الرومانية في البحر الأحمر، وفي الخارج ظهرت عل مسرح الاحداث قوتان جديدتان الأولى الامبراطورية الساسانية، والثانية مملكة أكسوم المسيحية ففي سنة م نشأت الامبراطورية الساسانية في اعقاب الملكة البارثية واعتبرت نفسها الوريث الشرعي لمملكة الاخمينيين التي هزمها الاسكندر المقدوني منذ ستة قرون، وفي عدها سعت لاحياء حضارة الفرس وقوميتهم التي ذبلت، فركزت نفوذها في منطقة ما بين النهرين، واحيت الصراع التقليدي بين الفرس والرومان في الاقاليم الواقعة بين الامبراطوريتين ونادت بطرد الروم من الشرق كله ومما عمق هذا الصراع ان الفرس يدينون بالزرادشية بينما يعتنق الرومان المسيحية.

وعمل الفرس للفكك من هيمنة الرومان على التجارة الشرقية في المحيط الهندي فأنشأوا الموانئ وتعاونوا مع عرب جنوب شبه الجزيرة العربية في نقل السلع بين الخليج الفارسي والبحر الأحمر ووجد الفرس في عرب اليمن، الذين اعتنقوا اليهودية، خير معين لهم في صراعهم ضد الدولة البيزنطية وحليفاتها دولة اكسوم اما الدولة الثانية فهي اكسوم الحبشية، التي كان البيزنطيون يراقبون نفوذها المتزايد بشيء من الحذر وبخاصة بعد ان غزت بلاد اصدقائهم ملوك مروى، وبعد ان بدأت تساهم في تجارة البحر الأحمر واخذت تطمع في السيطرة على اليمن لزيادة نصيبها من تلك التجارة، ومع ذلك كله فإن البيزنطيون كانوا يعتبرونها خير حليف لهم في ذلك الركن

النائي، وبخاصة بعد ان انتشرت المسيحية في ربوعها، ومن ثم توطدت الصلات بين البلدين وصارت اكسوم تنوب عن بيزنطة في نقل تجارتها وتدافع عن سياستها في تلك المنطقة في نحو سنة م تمكن الحميرون من توحيد دويلات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية تحت زعامة دولة حمير الثانية، التي استمرت مزدهرة إلا من غزوحبشي قصير، حتى سنة م ولم يقف الصراع حول اليمن على المجال الاقتصادي، بل وجد عمقا عقائديا فبعد أن انتشرت المسيحية والإهودية بين الوطنيين دخل اتباعها في صراع حاد استغله كل من الفرس والرومان لصالحهما خلال القرنين الخامس والسادس ولما اعتنق نونواس آخر ملوك حمير الإهودية وسعى للقضاء على المسيحية في نجران، استنجد المسيحيون بالامبراطور جستنيان الأول، حامى الكنيسة، فأشارت بيزنطة على نجاشي الحبشة بغزوبلاد اليمن ففعل ذلك سنة م ولا شل ان دوافع هذا الغزولم تكن دينية بحتة، وانما كانت تخفي وراءها مطامع بيزنطة لبسط نفوذها السياسي على القبائل العربية تحت ستر التدخل الحبشي وان تحارب بهم النفوذ الفارسي المتزايد والدليل على ذلك أن الأحباش لم يغادروا البلاد بعد نجدة المسيحيين بها بل ظلوا يجثمون على صدرها خمسين عاما، ثارت الجبهة الوطنية ممثلة في إلهود والثنيين خلالها مرات ويرجع بعض المؤرخين ان الاحباش كانوا يهدفون إلى انشاء مركز ديني في الجنوب العربي يستطيع منافسة مكة المكرمة ويجذب منها بعض الحجيج الذين يهرعون للكعبة وفي هذا الاطار يمكننا فهم بعض دوافع ابرهة لغزوالكعبة سنة م.

استنجدت الجبهة الوطنية بقيادة سيف بن يزن بالعاهل الفارسي، كسرى انوشروان، فأسرع الفرس بارسال جيش سنة م وطردوا الاحباش ولكن فرحة عرب الجنوب لم تطل، اذ ضم السيد الجديد بلادهم إلى الامبراطورية الفارسية وبذلك انتهت دولة حمير وتحول البحر الأحمر مرة اخرى إلى ميدان صراع بين قوتين عالميتين فارس الزرادشتية في الشرق وبيزنطة المسيحية بالتعاون مع الحبشة في الغرب وظل الفرس يحكمون اليمن حتى سنة م الموافقة للسنة السادسة من الهجرة النبوية حيث اعلن بادان الحاكم الفارسي اسلامه ودخل اهل اليمن الإسلام افواجها واسدل الستار على حقبة طويلة من صراع اخذ شكلا اقتصاديا بين ممالك البحر الأحمر ولكنه سرعان ما جذبته القوى العالمية، فلونته بأنماط اقتصادية ودينية وسياسية، معتمدة على اعوان محليين يديرون لها معاركها وما أشبه الليلة بالبارحة.

انتهت هذه الحقبة بظهور الإسلام الذي وضع حدا للتدخل الاجنبي وانتقل مركز الثقل من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمالها حيث احتل

الحجاز مركز الصدارة في المرحلة الأولى وبعد ان دانت شبه الجزيرة العربية لدولة المدينة المنورة خرجت الجيوش الإسلامية صوب الشرق والشمال، والشمال الغربي عبر الصحارى فانتصرت على فارس ودوخت بيزنطة، فأصبح البحر الأحمر بحيرة عربية بعد ان دانت له كل البلاد الواقعة على سواحلها الشرقية ومصر كما امتد نفوذ المسلمين حتى عم بلاد الحبشة إلا ان بلاد الحبشة ظلت بعيدة عن السيطرة الإسلامية الكاملة، وبما ان المسلمين الاوائل لم يهتموا بروب البحر سيرا على السياسة الحذرة التي اخطتها الخليفة عمر بن الخطاب في التعامل معه فانهم لم يفتتوا إلى تسخيرهم لمصالحهم، واستغل القراصنة الاحباش هذا الضعف فهاجموا ميناء جدة سنة م ورد عليهم المسلمون بتخريب ميناء عدول، وعادوا بعد ان فقدوا ثلاثا من سفنهم الاربع وفي سنة م أمر الخليفة سليمان بن عبدالمك باحتلال ارضييل دهلك لوضع حد لهجماتهم ولما كرر الاحباش هجماتهم على جدة سنة م تعقبهم الخليفة ابوجعفر المنصور وفرقهم.

واقترص دور البحر الأحمر حتى قيام الدولة العباسية على المناشط التجارية وحمل البريد، ونقل الحجيج من الجزء الشمالي إلى الحجاز، فلما قامت الدولة العباسية انتقل مركز الثقل التجاري من البحر الأحمر إلى منطقة الخليج والهلال الخصيب، وبهذا استرد الطريق الشرقي اهميته بعد الاضمحلال الذي اصابه اثر الحروب التي اجتاحت المنطقة بين الفرس والبيزنطيين، وصارت بغداد حاضرة العالم الإسلامي سياسيا وتجاريا ومن ثم لم يبق لمصر التي تقلصت مكانتها إلى مجرد مقاطعة في الخلافة العباسية، سوى جزء يسير من التجارة الشرقية وسعى الوالي العباسي، أحمد بن طولون، عند محاولته الاستقلال بادارة مصر لاسترداد جزء من تلك التجارة ولكن دون جدوى فلما آل أمر مصر للدولة الفاطمية نجحت في تحقيق تلك الخطة وكانت التجارة واحدة من الاسلحة التي اتخذتها تلك الدول الشيعية لمحاربة منافسيها في بغداد بقصد اضعافهم اقتصاديا ودخل الفاطميون في صلات تجارية وثيقة مع الشرق والغرب واستطاعوا بمساعدة اعوانهم في اليمن الاستفادة من خبراته البحرية في تحقيق هذا الهدف وباحكام قبضتهم على التجارة الشرقية امتدت سيطرتهم على العديد من موانئ البحر الأحمر بما فيها عيذاب ذات الموقع الجيد، وفي وقت وجيز ازدهرت عيذاب حتى صارت من احفل الموانئ الإسلامية وكانت السلع الهندية والصينية تنقل إلى عدن واولا ثم إلى عيذاب حيث تحمل على ظهور الابل عبر الصحراء إلى قوص وقفت، وكان تجار الهند واليمن وزنبار والحبشة يترددون عليها، وكانت السلع الشرقية تستبدل بالحريير والنحاس والقصدير والكيماويات الواردة من مصر وشمال

أفريقيا وأوروبا وبالذهب المستخرج من المعادن الواقعة شرق بلاد النوبة، ومنذ استثناء الخطر الصليبي أصبحت عيذاب ميناء الحجيج الوافد من مصر وبلاد المغرب وبلاد السودان.

كان الاسطول الفاطمي يجوب البحر الأحمر لحراسة السفن التجارية وتطهيره من القراصنة إلا ان تلك الاجراءات لم تردع حاكم مكة من تخريب عيذاب ونهبها سنة م ورد عليه الوزير فاضل الجمال بمنع الحجيج ووقف المؤن عن الحجاز وتجهيز جيش لمعاقبته فما كان من حاكم مكة إلا ان عجل بالاعتذار ورد كل ما اغتصبه.

حقق القاطميون هديهما الاساسيين، اولاً تحويل التجارة الهندية من منطقة الخليج العربي إلى البحر الأحمر مما أدى إلى ضعف الكيان الاقتصادي للخلافة العباسية التي سقطت أخيراً على أيدي المغول وساعدت هذه التغيرات ليستمر البحر الأحمر طريقاً رئيسياً للتجارة الشرقية، إلى ان احكم البرتغاليون قبضتهم، على منافذه في أول القرن السادس عشر ثانياً ترتب على هذا كله أن صارت التجارة الشرقية مصدر دخل مهم للدولة الفاطمية وما خلفها من حكومات على مصر وكانت عدن وعيذاب تمثلان محورين مهمين في هذه التجارة.

وفي عهد الايوبي الذي وقع على ملوكه عبء مكافحة الخطر الصليبي صار البحر الأحمر واحداً من جبهات ذلك الصراع فالحروب الصليبية ليست إلا مظهراً واحداً من مظاهر الصراع الطويل الدائر بين الشرق والغرب أوبين أوروبا وآسيا وكانت الحروب الفارسية الرومانية واحدة منها، كما كان الاستعمار الاوربي الحديث آخرها ويمثل الغزو الصليبي رد الفعل المسيحي للدين الإسلامي الاسيوي الذي كان في توسع مستمر منذ القرن السابع الميلادي وكان تزايد نفوذ دولة السلاجقة في اسيا الصغرى وتهديدها للقسطنطينية حاضرة الامبراطورية البيزنطية، السبب المباشر الذي فع الصليبيين إلى دخول هذه الحروب دفاعاً عن مصالحهم الدينية وانتقاماً من اعدائهم وكانت الحروب الصليبية تهدف لاسترداد القدس من المسلمين ومع أن المظهر الفكري الديني كان غالباً على هذه الحروب فإن الدافع الاقتصادي كان متوفراً ايضاً.

نقل الصليبيون المعركة إلى البحر الأحمر عندما قام ارنولد دي شاتيون صاحب الكرك سنة بتشيد سفن حربية في البحر الأبيض المتوسط، ثم نقلها برا إلى البحر الأحمر، حيث اكمل تزويدها بالجند والعتاد الحربي وكان هدف ارنولد دي شاتيون قطع طريق الحج وغزو الحرمين الشريفين.

لكن ثراء عيذاب شجع ارنولد دي شاتيون على غزوها فحرق ستة عشر مركبا واسر سفينتين قادمتين من اليمن وصادر مؤنا كانت معدة للشحن للحجاز وهاجم قافلة الحجيج بين قوص وعيذاب «وقاتل الجميع وحدثوا حوادث لم يسمع الإسلام بمثلها» وعلى ضوء هجوم ارنولد دي شاتيون لميناء عيذاب يمكننا ان نربط هجوم داوود ملك بلاد النوبة المسيحية لعيذاب وتخريبها في سنة بنفس المخطط الصليبي الذي كان يستهدف اضعاف دولة الماليك اقتصاديا بحرمانها الدخل الاقتصادي الكبير الذي يدره ميناء عيذاب.

فلما سمع السلطان صلاح الدين الايوبي بالخبر وكان في الشام وجه نائبه بمصر لتعقب الحملة الصليبية «فأدرك لؤلؤة الحاجب المعتدين ولم يبق بينهم وبين المدينة، على ساكنها افضل الصلاة والسلام، إلا مسافة يوم وكانوا ثلثمائة» فأسرههم وساقهم إلى القاهرة حيث لاقوا حتفهم.

وذكر القاضي الفاضل ان الافرنج استهدفوا «قطع طريق الحج وضرب العالم الإسلامي بغزوا الحرمين الشريفين والسيطرة على تجارة اليمن واكارم عدن». وبذلك يمكنهم احتلال ايلة في الشمال وقفل عدن من الجنوب فتتحقق لهم بذلك السيطرة على التجارة الشرقية وقفل البحر الأحمر في وجه اعدائهم.

وقع على دولة الماليك التي خلفت السلطنة الايوبية في مصر والشام اعباء جسام وبخاصة بعد ان اجتاحت جحافل المغول مدينة بغداد وسقطت الخلافة العباسية سنة وبسقوط الدولة العباسية صارت مصر المملوكية التي أوت الخليفة العباسي، مركز الثقل السياسي والحضاري والاقتصادي للأمة الإسلامية والمدافعة عن مقدساتها فسار الماليك على نهج الايوبيين في مقاومة الصليبيين والقضاء على جيوبهم واخذوا على عاتقهم حماية الحرمين الشريفين ونتيجة لهذه التطورات اخذت سياسة مصر نحو البحر الأحمر ابعادا ثلاثة متداخلة دنيا وسياسيا واقتصاديا.

اولاً: البعد الديني اصبح البحر بحرا مقدسا ان حرم الماليك على غير المسلمين دخوله حماية للحرمين الشريفين إلا باذن خاص من السلطات المصرية وازدادت حماية قوافل الحجيج وترتب على هذه المسؤولية ولأسباب اقتصادية تتعلق بميناء جدة ضم اقليم الحجاز لدولة الماليك.

ثانياً: اما العامل السياسي فينبع من صلات مصر مع دولة البحر الأحمر فالحجاز والساحل الغربي من البحر الأحمر حتى عيذاب كانا جزءا من سلطنة الماليك ثم ضم السلطان بيبرس ميناء سواكن إلى دولة الماليك

خوفا من ان تنافس عيذاب ثم جدة التي آلت إليها الزعامة الاقتصادية ومن بين الاسباب التي حتمت ضم سواكن تلك السياسة التي انتهجها حاكمها الشريف علم الدين اسبعاني، والتي تقضي بمصادرة ممتلكات من يموت من التجار.

وكانت اليمن وامارات الطراز الإسلامي السبع الواقعة على الساحل الجنوبي الغربي للبحر الأحمر وشرقي أفريقيا تدين بالولاء لسلطنة المماليك بحسبانها القوة الإسلامية الكبرى في ذلك الوقت وكان وضع امارات الطراز الإسلامي يتأرجح بين التبعية لملكة الحبشة والاستقلال عنها وقد شهدت المنطقة حروبا بسبب التنافس حول المراكز التجارية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

أما الصلات بين مملكة الحبشة المسيحية ومصر فقد تأرجحت بين الصداقة والعداء نظرا لأن الكنيسة الحبشية كانت تابعة للكنيسة القبطية، وكانت مصر تمد الكنيسة الحبشية بالمطارنة من وقت لآخر وقد تردت علاقات الود هذه إلى تهديدات بسبب وقوف كل بلد مع الاقلية الدينية التي تتبع له وكان الاحباش يلوحون بقتل مسلمي الحبشة أو تحويل مجرى النيل عن مصر كما كانوا يتآمرون مع القوى الصليبية لتطويق مصر ويعتقد بعض المؤرخين ان غارة بطرس لوزجيان على الاسكندرية سنة قد نفذت باتفاق مع الاحباش ليشنوا حربا من الجنوب وبعد احتلال المماليك لجزيرة قبرص اتصل جبرا صقل بملوك اوربا للقيام بحملة مشتركة ضد مصر، وكان الوسيط في هذه الاتصالات التاجر نور الدين على التبريزي، ولكن اكتشاف أمره سنة افسد المشروع.

اتسم العامل الاقتصادي العهد المملوكي باتجاه الدولة نحو ضمان سير التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر واحكام قبضة مصر عليها فاهتم المماليك بتطوير ميناء جدة وجعله صالحا لاستقبال عدد كبير من السفن واتخذ هذا القرار على حساب ميناء عيذاب، اذ منع المماليك السفن الهندية من التوقف فيه، على اثر تزايد هجمات الاعراب على قوافل المماليك التجارية ولما تمت سيطرة الدولة على ميناء جدة والحجاز عملت على تركيز كل تجارة البحر الأحمر فيه، وطبقت عليه تنظيمات ادارية ومإلدة دقيقة كانت تستهدف احتكار التجارة الشرقية وبما ان اليمن كانت تتحكم في مداخل البحر الأحمر، ويقوم ميناء عدن بدور مهم في نقل التجارة، سعى المماليك لاسترضاء ملوكها وكسب ودهم وبلغت تلك التنظيمات ذروتها عندما احتكرت الدولة في عهد السلطان برسباي تجارة البحر الأحمر وصار سلطان مصر التاجر الرئيسي

لتجارة التوابل وظل هذا النظام معمولاً به حتى نهاية دولة الماليك فجنت الدولة أرباحاً طائلة من إحتكار التجارة ومن الضرائب التي تجبها.

وكان تجار الاسكندرية يبيعون سلعهم إلى المدن الايطالية التي كانت تحتكر نقل السلع الشرقية إلى أوروبا منذ القرن الثالث عشر، وبما أن هذه التجارة كانت تدر ارباحاً طائلة فكان التنافس عليها شديداً بين تجار تلك المدن وبخاصة بين جنوه والبندقية التي كانت تسيطر على الجزء الاوفر منها وزاد هذا الوضع من حنق جنوه فوضعت كل خبراتها وما جمعتها من حقائق عن الشرق امام ملك البرتغال الذي كان يسعى للوصول إلى الهند عبر البحر

لم تنس أوروبا المسيحية ما لحق بها من هزائم انتهت بطرد الصليبيين من العالم العربي، ومنذ ذلك الحين كانت تسعى سعياً حثيثاً لايجاد طريق يمكنها من تطويق العالم الإسلامي من الجنوب والسيطرة على التجارة الشرقية مصدر رخائه وقوته وكانت البرتغال ربما بسبب قربها من مسرح الصراع بين المسلمين والمسيحيين في اسبانيا ووقوعها تحت تأثير تجار جنوه اكثر الدول اهتماماً بهذا الأمر. وحاولت استغلال فكرة الدوران حول القارة الافريقية التي روج لها الجنويون.

وفي سنة ١٤٩٢م ابحرت أول رحلة اكتشافية على الساحل الافريقي بتوجيه من الأمير هنري الملاح، المهتم بالكشوف الجغرافية وكبير جماعة المسيح العسكرية وكان البابا قد منحه السلطة الروحية وحرية الاتجار حتى بلاد الهند وفي نفس الوقت ابدى البرتغاليون اهتماماً كبيراً بالأخبار المتداولة عن القس يوحنا الذي يحكم منطقة واسعة فيما بين الصين وغامبيا، على ظنهم بقصد التحالف معه ضد المسلمين والراجح ان القس المقصود هو ملك الحبشة.

وفي ارسل يوحنا الثاني ملك البرتغال بعثة اكتشافية بقيادة بدرودي كوفلمهم للبحث عن مملكة الحبش وجمع معلومات عن المناطق المنتجة للتوابل والطرق المؤدية لها وزار كلوفلمهم ملك الحبشة لاستنقطابه في جهد مشترك وزار الهند ومها عاد إلى ساحل أفريقيا الشرقي واستغل ملك البرتغال المعلومات الثمينة التي ارسلتها هذه البعثة في استئناف الرحلات البحرية الموجهة للهند.

ومع ان التجارة الشرقية كانت سبباً مهماً في القيام بهذه الرحلات إلا ان المحرك الاساسي كان دينياً بل إن بعض المؤرخين يصفون هذه الرحلات بأنها موجة جديدة في سلسلة الحروب الصليبية، وقد اجمل عمانوئيل الثاني ملك البرتغال الدوافع عند وصفه لأسباب رحلة فاسكودي غاما الأولى للهند بقوله «إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحية والحصول

على ثروات الشرق.

وابحر فاسكودي غاما في يوليو على رأس اسطول مكون من اربع سفن، وكانت سفينته تحمل مدفعا وقد علق على ساريتها علم رسم عليه صليب كبير وسار الاسطول عن طريق رأس الرجاء الصالح الذي اكتشف قبل عشرة اعوام حتى بلغ ساحل أفريقيا الشرقي وتمكن بمساعدة الملاح أحمد بن ماجة من الوصول إلى كالكوت أهم موانئ ملبار، الساحل الغربي للهند، في مايو ومع إن فاسكودي غاما فشل في اقامة علاقات تجارية أو سياسية مع السأمري وحاكم كليكوت بسبب موقف التجار المسلمين، إلا أن الرحلة قد حققت هدفها الرئيسي وهو اكتشاف الطريق البحر إلى الهند.

في مستهل القرن السادس عشر توالى الرحلات البرتغالية إلى المحيط الهندي فارضة وجودها وسيطرتها في منطقة كان النشاط التجاري فيها قاصرا على العرب، وكان البرتغاليون يعمدون لابعاد التجار العرب عن المراكز التجارية في الهند وشرق أفريقيا وتعقب سفنهم واغراقها أو مصادرتها وفي نحو سنة م عهد فاسكودي غاما إلى اسطول برتغالي صغير بحراسة مدخل البحر الأحمر ومهاجمة السفن العربية ومنعها من المتاجرة في المحيط الهندي إلا بتصريح خاص منه وفي الهند سعوا إلى تاللب الحكام الهنود ضد العرب والمسلمين وبفضل تفوقها العسكري وامتلاكها لسفن مزودة بالمدافع والبنادق التي لم تعرف من قبل في تلك الاقاليم تحقق للبرتغال في زمن وجيز احتكار التجارة الشرقية والسيطرة على مصادرها في الهند، وجنى البرتغاليون ارباحا طائلة بلغت احيانا خمسة اضعاف تكلفة الرحلات التي كانوا يبعثونها، وتوجوا ذلك كله باقامة أول حكومة استعمارية أوربية في الشرق الأقصى لتأمين هذه المكاسب ومنذ البدء حرص البرتغاليون على التبشير بالدين المسيحي في المناطق المحيطة بمراكزهم التجارية.

قد ادى تحول التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح إلى اضعاف دور البحر الأحمر في تلك التجارة وتقليص الأهمية الاستراتيجية للبلاد الواقعة عليه، وادى ذلك إلى توجه ضربة قاضية لإقتصاد البلاد العربية المستفيدة منها وبخاصة مصر واليمن وكان هذا الحدث فاتحة لصفحة جديدة من الصراع بين العرب والنوبة ... الاستعمارية الجديدة في المحيط الهندي الشرقية بعد أن تحولت إلى طريق رأس الرجاء الصالح والذي كان فاتحة لصفحة جديدة من الصراع وفي غضون تلك الفترة ابدت اليمن ومصر اهتماماً شديداً بالغزو البرتغالي ولكن امكاناتهما البحرية كانت ضئيلة فالدولتان لا تملكان اسطولا حربيا يقوى على مواجهة الخط البرتغالي، وفي سنة غامر السلطان عامر بن

عبدالوهاب الذي كان مشغولا ببعض الفتن الداخلية، بحملة واحدة مكونة من اربع عشرة سفينة وستمائة مقاتل، بعضهم من الطلاب المتطوعين لحرب البرتغاليين في الهند ولم يعرف شيء عن مصير تلك الحملة ومن قبلهم سعى الماليك لمواجهة البرتغاليين لفك الحصار الذي فرضوه على السفن والتجارة العربية في المحيط الهندي، وتلبية لاستنجد ملك اليمن بهم، وكانت خطتهم تقوم على تقوية الحكم الملوكي في البحر الأحمر وتحصين سواحله بما في ذلك ميناء جدة، وبخاصة بعد ان اعلن البرتغاليون عزمهم على مهاجمة الحرمين الشريفين وتخريبهما وفي سنة بعث السلطان قنصوه الغوري باسطول حربي بقيادة حسين الكردي، فشىد تحصينات جيدة في ميناء جدة، لرفع كفاءتها الدفاعية ثم استولى على سواكن وزار بعض الموانئ اليمنية ثم عدن ثم خرج لمواجهة البرتغاليين حيث اصطدم بهم امام ديوتمكن بمعاونة بعض الامارات الهندية من احراز نصر جزئي لم يدم طويلا، اذ حلت الهزيمة به في فبراير فانسحب إلى البحر الأحمر، تاركا المحيط الهندي تحت سيطرة البرتغاليين الذين زادت جرأتهم.

نقل القائد البرتغالي البوكيرك المعركة إلى السواحل العربية فاحتل جزيرة سقطرة، الواقعة عند مدخل البحر الأحمر، لاحكام اغلاقه امام السفن العربية، كما هاجم وضرب الساحل الممتد من عدن حتى هرمز وفي سنة ارسل حملة إلى عدن اضطرت إلى الانسحاب بعد ان استبسل اهلها استبسالاً رائعا، ومنها اتجه البوكيرك شمالاً نحو باب المندب واستولى على جزيرة كمران واحكم تحصينها وكان هدفه الرئيسي ميناء جدة التي لم يتمكن من الوصول إليها بسبب ريح عاتية فعاد إلى كمران ومنها هاجم ميناء زيلع ورشقها بالمدافع وكرر صنعه هذا في عدن ومنها عاد إلى الهند، ومع ان الرحلة لم تحقق نصرا عسكريا حاسما في البحر الأحمر إلا ان توغل البوكيرك في تلك المنطقة ساعد في التعرف على طبيعتها ورسم خطة العمل فيها لسد مضايق البحر، والسيطرة على عدن وفي عهد البوكيرك تم الاتصال بين الحبشة والبرتغال بقصد تنسيق الجهود ضد المسلمين، وبخاصة الماليك الذي يمدون يد العون للامارات الإسلامية في منطقة الطراز وتوجت هذه الاتصالات بارسال اول سفارة دبلوماسية برتغالية إلى بلاط ملوك الحبشة سنة وكانت استراتيجية ملوك الحبشة تهدف إلى استقطاب الدول الاوربية مثل البرتغال وفرنسا واسبانيا لاحتلال احد المواقع المهمة في البحر الأحمر مثل زيلع ومصوع وسواكن، ثم الانقضاض منها على المدن الإسلامية المهمة اما البرتغاليون كانوا يرمون إلى اتخاذ الحبشة قاعدة عسكرية، لاستغلال ثرواتها، ثم تحويل الاحباش من المذهب الارثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكي، ولما تكشفت هذه النوايا وانهار الحلف عمل الاحباش على

التبرؤ من ارتباطهم مع البرتغاليين والسعي لطردهم وبخاصة بعد ان ظهر الاتراك العثمانيون كقوة اسلامية كبرى في البلاد العربية والبحر الأحمر فخاف الاحباش بأسهم وتمكنوا من طرد البرتغاليين في اوائل القرن السابع عشر.

لما تكررت الاعتداءات البرتغالية على البحر الأحمر استنجد قنصوة الغوري الذي كان يعد العدة لمواجهة اخرى مع البرتغاليين في الهند، بالسلطان العثماني بايزيد الثاني يطلب منه مده بالاخشاب والعتاد، فأمده بايزيد بما يحتجا إليه هدية مضافا إليها نحوالفين من البجارة بقيادة سلمان الرئيس أوسلمان الرومي للمساعدة في تشييد السفن والمشاركة في حملة الهند وابتحرت الحملة المكونة من عشرين سفينة وستة الاف جندي بقيادة سلمان الرئيس وعند وصولها إلى جدة تولى القيادة نائب السلطان حسين الكردي وقرر الماليك قبل مواجهة البرتغاليين في المحيط الهندي احكام التحصينات الدفاعية على السواحل اليمنية وبخاصة عدن اولاً، وانشاء قاعدة بحرية تتحكم في اغلاق البحر امام البرتغاليين ثانياً وعند وصول الاسطول إلى جزيرة كمران بقصد تحصينها طلب الماليك من السلطان أمر تقديم ما وعد به من عون على هيئة مال ومؤن وتردد السلطان في الاستجابة لذلك الطلب خوفاً من ان يكون بداية لسيطرة مملوكية جديدة على اليمن، وأمر ولاته في الساحل بعدم الاستجابة لطلبات الماليك ونزل الماليك إلى الساحل اليمني واخذوا ما يحتاجونه إليه من مؤن واخشاب عنوة ووجد الماليك بعض التشجيع والعون من العناصر المناوئة للسلطان أمر في منطقة تمهمة وساءت العلاقات بين الماليك والسلطان وتردت إلى حرب سافرة احتل حسين الكردي على اثرها بعض المدن التمهيمية مثل زبيد وبعد تعيين الأمر برسباي حاكماً على مدينة زبيد وقائداً للجيش المملوكية في تمهمة، تابعت الحملة سيرها على زيلع، ثم بدأت في مهاجمة عدن التي استبسلت في الدفاع عن نفسها، وردت الماليك عنها مرتين فاضطروا للانسحاب في اغسطس وادى فشل الماليك في احتلال عدن إلى تأجيل حملة الهند واتخذوا سواحل تمهمة اليمن خط دفاع اول لهم وجعلوا جدة مركز دفاعهم الثاني ولم يطل العهد بحسين الكردي، اذ سقطت دولة الماليك امام جحافل العثمانيين سنة ١٥١٧م اما الماليك الذين بقوا في زبيد تحت قيادة برسباي فاستمروا في حربهم ضد الطاهرين حتى قتلوا السلطان عامر في مايو واحتلوا صنعاء وبذلك انتهى الوجود المستقل لدولة اليمن وسارع مماليك اليمن بالاعتراف بالدولة العثمانية، وهكذا فعل شريف مكة وبدخول العثمانيين القاهرة في ابريل طويت صفحة عهد رائع من انبل العهود الإسلامية، كللت فيها مساعي الماليك بالنصر على المغول والصليبيين ولكنها اخفقت في رد عادة البرتغاليين، وورث العثمانيون دولة الماليك وتبنوا سياستها في مواجهة الخطر

البرتغالي والدفاع عن البحر الأحمر، وحماية الحرمين الشريفين.

لم يلتفت السلطان سليمان القانوني للخطر البرتغالي توا رغم توالي هجماته، بسبب اشتغاله بحروب البلقان ومد النفوذ العثماني في فارس والعراق، ولم يقيم العثمانيون بجهد حربي ضدهم حتى عام م.

في هذه الاثناء واصل البرتغاليون حملاتهم لتحقيق مطامعهم في البحر الأحمر، ففي فبراير خرج نائب الملك البرتغالي في الهند، لوبوسوريز على رأس حملة قاصدة جدة وسارت الحملة دون ان تتعرض لعدن التي امتدتها بالمؤن اللازمة وبيع بعض المرشدين من البحارة اليمنيين، ليجنبوها مخاطر الشعب المرجانية، وعند وصولها إلى جدة فشلت في احتلالها بسبب مناعة التحصينات التي اعدّها المماليك كما ان انتقال السلطة للعثمانيين جعلهم يعجلون بالرحيل وتعقبهم سلمان الريس وتمكن من اسر سفينة برتغالية، وكرر البرتغاليون صنيعهم مرة ثانية عام، إلا ان الرياح صدتهم عنها ونجحت نفس الحملة في انزال اول بعثة دبلوماسية في الحبشة كما نوهت من قبل وفي سنة تعرض عدن لقصف بالمدافع وحصار برتغالي، وفي فبراير توج البرتغاليون محاولاتهم بفرض معاهدة على عدن ولذاك اصبحت عدن جزءا من املاك البرتغال والتزمت عدن بدفع جزية سنوية، مع اعطاء سفنها حرية الملاحة بشرطة عدم توجهها إلى جدة ولكن المعاهدة لم تدم طويلا، اذ بذل العدنيون محاولات جادة للخلاص من السيطرة البرتغالية واستنجدوا بالسلطان العثماني سليمان القانوني معلنين الدخول في طاعته.

وفي عام بدأ وإلى مصر بتوجيه من السلطان العثماني في اعداد السفن اللازمة في السويس لحملة بحرية لاختضاع اليمن ولحاربة البرتغاليين وتساعد اهتمام السلطان سليمان القانوني بهذا الأمر بعد فتح العثمانيين للعراق وامتداد نفوذهم لسواحل الخليج العربي الشمالية المجاورة للنفوذ البرتغالي في جنوب الخليج، ويروى ان السلطان بلغه ان البرتغاليين كانوا على صلة بالفرس وانهم قد امدوهم ببعض المعونات الحربية ولم تقف الاستنجات بالعاهل العثماني على العدنيين ففي سنة طلب سلطان كجرات الهندي دعما عسكريا حتى يتمكن من الصمود في وجه البرتغاليين وابتحرت الحملة من السويس في يونيو وكان قوامها ثمانين سفينة وعشرين الف مقاتل بقيادة سليمان باشا الخادم الذي كانت خبرته بالبحر ضيئلة واجرى سليمان باشا بعض الاتصالات مع أمراء اليمن قبل بدء الحملة مسيرتها مما سهل مهمته وتمكن من الاستيلاء على ميناء عدن، بعد أن غدر بحاكمها عامر بن داؤود الذي أحسن استقباله وقد اساء هذا الفعل المشين بسمعة العثمانيين في تلك

المنطقة وتابعت الحملة رحلتها إلى الهند حيث حاصر قلعة ديوبالتعاون مع جيش كجرات، وبعد شهر رفع سليمان باشا الحصار واقلع نحو السواحل العربية لاكمال اخضاعها للسيطرة العثمانية، ومث له اخضاع المنطقة الممتدة من الشحر في الجنوب حتى جيزان في الشمال، وفي زبيد ثم نقل السلطة من المماليك إلى موظفين عثمانيين ولكنه لم ينجح في الاستيلاء على المناطق الداخلية التي بقيت تحت حكم الزيديين وظلت تتحدى الخضوع للدولة العثمانية للسيطرة عليها عشرات السنوات.

عاد سليمان باشا إلى مصر دون ان تحقق حملته هدفها في الهند، ولكن في اليمن تم لها السيطرة على عدن وزبيد والسواحل اليمنية وعلى اثر هذه الهزيمة تجرأ البرتغاليين بارسال حملة توغلت حتى مشارف السويس سنة م ولكنها لم تحاول ضرب الاسطول العثماني الموجود فيها، بل اكتفت بتخريب بعض السفن في القصير، وهاجمت سواكن ودهلك ثم عادت إلى الموانئ الحيشية، وترتب على هذين الحدثين، فشل الحملة إلى الهند والتوغل البرتغالي في البحر الأحمر، أن هجر العثمانيون سياستهم الهجومية واكتفوا بالدفاع عن البحر الأحمر واغلاقه امام السفن البرتغالية، بل حرموه على سائر السفن الاوربية خوفا من ان تتسلل إلى البحر بحسبانه الطريق الرئيسي للأماكن المقدسة، وتمكن العثمانيون من تحقيق هذا الهدف بدعم قواعدهم البحرية في اليمن واحكام قبضتهم الادارية عليه ومد نفوذهم إلى السواحل الحيشية.

وفي اليمن قام العثمانيون بخطوات ادارية وحربية لدعم سلطتهم في الاماكن التي خضعت لهم على السواحل، وبدأوا في مد نفوذهم على الاقاليم الداخلية، ومع أن الجيوش العثمانية استولت على اغلب تلك المناطق وتمكن ازدمير باشا من توحيد اليمن تحت السيطرة العثمانية في سنة إلا ان المقاومة اليمنية كانت تطل برأسها من وقت لآخر، وتجمعت المقاومة حول اتباع الامامية الزيدية وتابعت كفاحها حتى انهارت السلطة العثمانية وارسلت الدولة العثمانية حملة كبيرة بقيادة سنان باشا لاسترداد السيطرة العثمانية على اليمن سنة وتتضح اهمية هذه الحملة من التوجيه الذي اصدره السلطان سليم الثاني لسنان باشا استردادنا لمملكة اليمن وان كان ذلك مما يتعين علينا لأنها ميراث أبينا المقدس، لكن جل قصدنا من ذلك انما هو حفظ ثغر عدن صونا للحرمين الشريفين من الكفار الملاحين وتمكن الجيش العثماني من فرض السيطرة العثمانية مرة ثانية، إلا ان روح المقاومة لم تضعف بل زادت حدة فكثرت الثورات بقيادة الائمة الزيديين حتى نجحوا في اجبار العثمانيين على الجلاء عن اليمن عام وهكذا وقف العرب في وجه الاتراك، وكان اليمن أول

بلد عربي ينسلخ من الحكم التركي.

في نهاية القرن السادس عشر بدأ الوهن يدب في اوصال الامبراطوريتين العثمانية والبرتغالية لاسباب كثيرة، يكفي ان نذكر ان ضعف اساطيل الدولتين كان اهم مظاهرها ويجدر ان نذكر ان البرتغاليين رغم نجاحهم شبه الكامل في السيطرة على الملاحة في المحيط الهندي فانهم فيما يبدو لم ينجحوا بنفس القدر في السيطرة على التجارة الشرقية، اذ ظل جزء يسير من هذه التجارة يجد طريقه إلى البلاد العربية وحقيقة الأمر ان النشاط التجاري في موانئ البحر الأحمر لم يصب بالركود التام كما يظن البعض، اذ ان التجارة المحلية كانت تسير على نمطها العادى، إلا ان ما حققه البرتغاليون من مكاسب نتيجة احتكارهم لهذه التجارة دفع جيرانهم من الدول الاوربية لي تجربوا حظهم في هذا المضمار.

كان أول من وصل إلى مياه المحيط الهندي عن طريق رأس الرجاء الصالح هم الهولنديون الذين كسروا ذلك الاحتكار في سنة وتبعهم الانجليز في سنة وكان دخول هاتين الدولتين في المحيط الهندي بداية لمنافسة حادة للاستئثار بتجارة الشرق وكان الصدام المسلح من سمات هذه المنافسة، وما أن انتصف القرن السابع عشر حتى كانت البرتغال قد فقدت سيطرتها على المحيط الهندي وسواحله ولم يبق لها منه سوى بعضة جيوب على الساحلين الافريقي والهندي.

منذ بداية القرن السابع عشر بدأت هذه القوى الجديدة تطرق سواحل البحر الأحمر بقصد اقامة علاقات تجارية مع موانئه والاستفادة منه كطريق تجاري مهم وكانت علاقات العثمانيين بالقادمين الجدد يشوبها كثير من الحذر ففي البدء سمحوا للسفن الاجنبية بالتعامل مع ميناء مخا الواقعة على الساحل الشرقي، ولكنهم صدوها عن التوغل في داخل البحر الأحمر، وسمحوا للسفن العربية بنقل السلع التي تجلبها تلك السفن للموانئ الشمالية وينبع هذا الاجراء من سياسة العثمانيين، كحماة للحرمين الشريفين في المحافظة على البحر الأحمر كبحيرة اسلامية، ولعل الضعف الذي أصاب الاسطول العثماني كان سببا في اصرارهم على تنفيذ هذا الاجراء.

كان البريطانيون أول من سعى لاقامة علاقات تجارية مع الجزيرة العربية، ففي عام طلب الكابتن الاسكندر شاربي السماح له بالتجارة في ميناء مخا، وقد سمح له حيناً وحرم حيناً آخر وارسلت شركة الهند الشرقية البريطانية في العام التالي بعثة تجارية برئاسة هنري ميدلتون لنفس الغرض

فزار عدن أولا ثم مخا وقوبلت هذه البعثة بعداء واستنكار شديدين من السلطات العثمانية التي ابدت تعجبها من جرأة أولئك الصليبيين الذي يسعون للاقتراب من الاماكن المقدسة في الجزيرة العربية وبعد محاولات متعددة من الانجليز لسمح لهم في عام بالمناجزة في حرية تامة في مخا والمناطق الواقعة إلى الجنوب منها، ولذلك صارت بريطانيا الدولة الاوربية الوحيدة التي منحت هذا الامتياز.

ولعل مما دفع العثمانيين لاتخاذ هذا الاجراء تأكدهم من خفة حدة التنافس القائم بينهم وبين البرتغاليين، ورغبتهم في تنشيط التجارة لتحسين وضع اليمن الاقتصادي ولا شك أن قيام الدولة الزيدية بعد طرد العثمانيين سنة قد دفع اليمنيين لاقتحام مجال التجارة الشرقية وشجعهم على التعاون مع الاوربيين، وفي هذه الفترة انتشرت زراعة البن وكثر الاقبال على شرائه حتى صار من اهم الصادرات اليمنية، وكان البن سلعة رائجة في الشرق الاوسط واوربا وأمريكا، ومن ثم كان يصدر عن طريق البحر الأحمر وطريق رأس الرجاء الصالح في وقت واحد، وكان لتجارة البن اثر كبير في انعاش طريق البحر الأحمر التجاري.

وجدت شركة الهند الشرقية البريطانية، التي كانت تحتكر التجارة الشرقية مجالا طيبا في اليمن، فأنشأت عددا من الوكالات التجارية بالتعاون مع التجار الهنود الذين انتشروا في البلاد وحققوا ارباحا طائلة بعد ان غادر الهولنديون اليمن في سنة وصار الانجليز يسيطرون على تجارة البن وغيرها من السلع اليمنية، وحرصت شركة الهند الشرقية على مساندة الزيديين بعد انتهاء الحكم العثماني، ووجدت فيهم خير نصير لتسهيل التبادل التجاري وكان الود يسود هذه العلاقات رغم تحذيرات السلطان العثماني الذي ازعجه تزايد النشاط الاوربي التجاري في المياه اليمنية.

ولا شك ان تصدير جزء كبير من البن عن طريق رأس الرجاء الصالح قد اضر بدخل الدولة العثمانية في مصر فبعث السلطان العثماني سفيرا إلى امام اليمن سنة يحذره من الاستمرار في التعامل التجاري المباشر مع الدول الأوربية ويرجوه قصدر تصدير البن اليمني إلى مصر فقط عن طريق البحر الأحمر، ورفض الامام تحقيق تلك الرغبة التي تضر بوضع بلاده الاقتصادي، واستمر في معاملته التجارية مع الاوربيين.

في الوقت الذي كانت السفن الإنجليزية تطرق ابواب اليمن تسلل الهولنديون بقصد اقامة وكالات تجارية في اليمن، وكانت محاولاتهم الأولى سنة

عندما وصل فإن دي بروك إلى عدن متسلحاً بتصريح من الباب العالی لیسبح له بالمجارة في جميع انحاء الدولة العثمانية ومع انه قد ربح به في اول الأمر، إلا ان معارضة التجار المقيمين له، خشية منافسته، لهم أجبرته، على الرحيل، وباءت محاولته في مخاطب بالفشل بسبب تخوف الحاكم من تسربهم إلى المدن المقدسة وازاء هذه المعارضة ركز الهولنديون نشاطهم التجاري على الساحل الجنوبي، ولم يحاولوا التوغل في البحر الأحمر لاقامة مراكز تجارية وكانت تجارة البن تمثل جزءاً مهماً في تعاملهم التجاري مع اليمن فلما نجحوا في نقل زراعة البن إلى جزر الهند الشرقية، وصعب عليهم توسيع دائرة أعمالهم التجارية في اليمن، غادروه عام.

وفي عام م نجحت بعثة فرنسية في عقد معاهدة تجارية مع حاكم مخا سمح لهم بمقتضاها بفتح وكالة تجارية، ورغم اعتراض السلطات العثمانية على تزايد النفوذ الاوربي الذي أشرنا إليه، فإن النشاط الفرنسي زاد اتساعاً وجرأة ففي سنة م تمكنت الشركة الفرنسية بعد ان ضربت ميناء مخا، من اقناع حاكمها بتخفيض العوائد الجمركية المفروضة عليها من ٪ إلى اثنين ونصف بالمئة.

وخلال قرن من انحسار النفوذ العثماني في اليمن تمكنت الشركات الأوروبية من تدعيم وجودها التجاري عن طريق الوكالات المنبثقة في سواحل البحر الأحمر الجنوبية، ثم اندفعت نحو الجزء الشمالي لتحقيق أهدافها التجارية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وشهدت هذه الفترة سباقاً شديداً بين الانجليز والفرنسيين من اجل الانفراد بالوكالات التجارية وكان التنافس على اشده في مصر التي تتحكم في الجزء الشمالي من البحر الأحمر، فاهتمت شركة الهند الشرقية بالسوق المصرية التي كان الفرنسيون يتمتعون فيها بامتيازات تجارية ففي سنة م عينت انجلترا قنصلاً لها في الاسكندرية ومنحهم السلطات مصطفى الثاني امتيازات مماثلة للامتيازات الفرنسية، وازداد الاهتمام البريطاني بمصر وبطريقة البحر الأحمر بعد صلح باريس سنة في محاولة للربط بين مصر والممتلكات البريطانية في الهند ومما مهد السبيل لهذا التطور ان الرسوم الجمركية كانت تمثل جزءاً مهماً من دخل الدولة وحقيقة الأمر ان حكام المناطق المطلة على البحر الأحمر مثل الائمة في اليمن والاشراف في مكة والماليك في مصر كانوا يسعون لتشجيع التعامل التجاري مع الأوروبيين حتى يزداد دخلهم من الضرائب التي تجبي من التجار المترددين على موانئها.

وفي مصر عقد محمد بك ابوالذهب اتفاقية مع الانجليز لتنشيط التجارة بين مصر والهند واثار هذا التصرف المستقل من حكام مصر حفيظة

السلطات العثمانية، خشية من تزايد النفوذ الاوربي، وحذر السلطان العثماني القائمين على أمر مصر من عواقب التمادى في مثل ذلك الاجراء، وذكرهم بما حدث في الهند التي رحبت بالتجار الإنجليزي ففقدت استقلالها وصارت مستعمرة بريطانية.

ولكن هذه التحذيرات لم تكن لتؤثر على ممالك مصر بسبب العائد الكبير الذي يجنونه من تلك التجارة وفي السبعينات من القرن الثامن عشر استطاعت السفن البريطانية ان تصل السويس والقصير والطور وفي نفس الفترة توسعت دائرة النشاط التجاري الفرنسي فعقد الفرنسيون سنة م اتفاقية مع مراد بك تبيح للسفن الفرنسية التردد على ميناء السويس، واكتمل لها بذلك حق الملاحة في البحر الأحمر والاتجار في موانيه.

كان التنافس التجاري حول البحر الأحمر، بين انجلترا وفرنسا، يخفي وراءه صراعا سياسيا حادا وكان كل من الدولتين يعرف قيمة البحر الأحمر في الوصول إلى الشرق الاقصى وكان ينظر إلى تحركات الطرُق الآخر بحذر شديد وقد أبانت حملة نابليون بونابرت على مصر في مايو/أذار الفرنسيين لأهمية البحر الأحمر وباحتلالهم لمصر دخل البحر الأحمر في مرحلة تاريخية حديثة، وكانت انجلترا تخشى ان تستغل فرنسا هذا الطريق المائي القصير للوثوب للهند درج التاج البريطاني.

لم يقف الانجليز مكتوفي الايدي بل رتبوا أمرهم بقف منافذ البحر الأحمر أمام الفرنسيين فاحتلوا جزيرة بريم عند بوغاز باب المنذب في سنة م ودعموا ذلك الإحتلال بعقد عدد من معاهدات الصداقة مع سلطان لحج ومشائخ القبائل في جنوب شبه الجزيرة العربية وختموا هذا التدخل باحتلال عدن سنة م وظلت انجلترا تسعى جاهدة لابعاد أي منافس لها في البحر الأحمر الذي اضحى منذ بداية القرن التاسع عشر وادخال السفن البخارية اقصر طريق يلائم الثورة الاقتصادية التي اجتاحت العالم كما ان شدة الصراع السياسي حول المستعمرات الجديدة كان يستلزم اتخاذ قرارات سريعة بالتشاور مع العواصم الاوربية وعليه لم يعد طريق جبل طارق رأس الرجاء الصالح البحري، يواكب كل هذه التطورات.

استرد البحر الأحمر اهميته، كما استردت البلاد الواقعة عليه اهميتها الاستراتيجية مما جعل الدول المتنافسة تهدف لعقد احلاف معها تسعى للسيطرة على منفذه في عدن والجنوب العربي والقرن الافريقي ومصر وكان فتح قناة السويس سنة م احد مظاهر هذا الصراع بين الدول الاوربية الاستعمارية

التي صعّدت معركتها من مجرد تكثيف نشاطها التجاري إلى السيطرة على مصادر المواد الخام بل والبلاد ذاتها.

يتضح من هذه الملاحظات ان الصراع حول البحر الأحمر ظاهرة قديمة تجدد عبر العصور، ففي البدء كانت بين الدول المطلّة عليه، ثم دخل الرومان وتبعهم الفرس، واستغل هؤلاء الدول المحلية لتنفيذ مخططاتهم، وهكذا فعل غيرهم في عصور اخرى.

ثم آل إلى القوى الإسلامية، التي جعلت منه بحيرة اسلامية دهرًا طويلًا ولكن سرعان ما نافستهم عليه القوى الصليبية، وفتحت البرتغال عهدًا جديدًا من الصراع كانت السفن البخارية والاسلحة النارية دعامة الأولى ووقف العثمانيون في وجه الخطر البرتغالي وحرّموا ارتياد البحر الأحمر على غير المسلمين ولكن دولا جديدة دخلت حلبة الصراع وبدأ فجر جديد من الصراع كان امتدادا المحاولات اوروبا القديمة في السيطرة على البحر الأحمر كما كان مسرحا للتنافس بين بعض الدول الاوربية نفسها مثل انجلترا وفرنسا.

بافتتاح قناة السويس تمكنت اوروبا من احكام قبضتها على منافذه واستطاعت اوربا خلال القرنين الماضيين ان تبسط نفوذها العسكري والسياسي والاقتصادي والتقني والثقافي على اجزاء كبيرة من المعمورة كان البحر الأحمر واحدا منها، وصارت حضارة الغرب هي الحضارة الطاغية في عالم اليوم، واخذ الغرب يسعى لبيسط سلطانه بكل الوسائل سلمية كانت أم عسكرية وكانت السيطرة على مصادر الطاقة آخر الوسائل لتحقيق هذا الهدف، وما الحديث عن أمن البحر الأحمر إلا رد الفعل العربي الإسلامي، لزعزعة هذا الكابوس.

المصادر والمراجع

١. ابوشامة عبد الرحمن بن اسماعيل الروضتين في اخبار الدولتين، بيروت بدون تاريخ ج.
٢. أحمد رمضان مصر والبحر الأحمر، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس،
٣. الادريسي محمّد بن أحمد تاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نابولي،
٤. ابن تغرى بردى، ابو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة.

٥. ابن اياس، بدائع الزهور من وقائع الدهور، تحقيق محمّد مصطفى، القاهرة ج،
٦. محمّد زغلول عبد ربه، البرتغاليون والبحر الأحمر، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس القاهرة.
٧. السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، القاهرة.
٨. سيد أحمد علي الناصري الرومان والبحر الأحمر، ندوة البحر الأحمر في التاريخ جامعة عين شمس،
٩. عاشور، سعيد عبدالفتاح، بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المجلد.
١٠. عبد الرحيم عبدالرحمن، النشاط والتجارة في البحر الأحمر في العصر العثماني، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس
١١. فاروق عثمان اباظة، التنافس البريطاني الأمريكي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ندوة البحر الأحمر جامعة عين شمس،
١٢. فائق بكر الصواف اهمية ثغر جدة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري م ومصطفى محمّد رمضان ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس،
١٣. القزويني عجائب المخلوقات القاهرة د ت
١٤. قاسم عيد قاسم علاقات مصر بعالم البحر الأحمر في عصر سلاطين المماليك، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس، القاهرة
١٥. محمّد أحمد انيس الدولة العثمانية في الشرق العربي، القاهرة بدون تاريخ
١٦. محمّد أمين صالح تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الحراكة ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس،
١٧. المسعودي علي بن أحمد مروج الذهب ج، باريس
١٨. المقرئزي، علي بن أحمد الإمام عما بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة
١٩. كتاب السلوك في معرفة دول الملوك ج، القاهرة،